7 جهاد الحجة

وعي المسلم لوجوب الدعوة إلى الله، وفقهه لهذه المسألة الجدية، ووضوح رؤيته لهذا المعلم البارز من معالم الطريق الإسلامي، كل هذا يحدد نقطة البدء والانطلاق في مسيرة الفرد المسلم في الحياة، وفي خطة أي إصلاح جماعي، ومن ثم وجب الإلحاح في بيان هذا الواجب، وتطبيق السلف الصالح له، وأمثلة من تجدد سيرة السلف وكلامهم في ذلك في قرننا هذا.

وكما رأينا عبد الله بن مسعود يرصد نفسه في الكوفة لتفنيد العزلة، نرى الحسن البصري سيد التابعين / يرصد نفسه في البصرة لبعث همم الناس، وشرح معنى الإصلاح، فيتلو على أهل البصرة قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت:٣٣] ثم يقول: **(هو المؤمن أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته.**

فهذا حبيب الله ، هذا ولي الله).

لا غيره ممن يعتزل ويجمد ويكون مستورا.

وحين نقل ابن القيم كلام الحسن هذا عقب فقال:

(فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد) [1].

وبمسارعته هذه إلى فهم كلام الحسن، وباتحاد قوله مع قول الكيلاني الذي ذكرناه قبل، دلل على أن وحدة المفاهيم تابعة لوحدة المنهج في البحث.

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ١٥٣.

أقباس متشابهة من نور واحد

فلأن منهجهم هو جعل القرآن والحديث الصحيح مصدر الفهم، وبناء الاستعداد النفسي لقبول جميع معاني القرآن، والحديث التي يشير إليها العقل السليم والظاهر اللغوي: اتحدت أقوال هؤلاء الرهط الفاضل الذين ننقل عنهم ومفاهيمهم، ابتداء بالصحابة، ومن تبعهم بإحسان، ومرورًا بابن الجوزي والشيخ عبد القادر وابن تيمية وابن القيم، وانتهاء ببعض أفاضل هذا العصر، كالرافعي وإقبال وعبد الوهاب عزام، وبقادة الدعوة كالإمام البنا، والمودودي، وعودة، وسيد قطب، وسيظل سير هذه الطائفة الظاهرة على الحق، الآخذة بالمعنى الظاهر، إلى يوم القيامة، بعكس منهج الطوائف الأخرى التي حددتها ابتداء تأثرات فلسفية، وميول ابتداعية، وشهوات بدنية ونفسية، وتخوفات، وجبن وحرص، فما عادت تفتش إلا عما يوافق الذي وقر في عقولها ونفوسها، وتعرض عما يفضحها، أو تتمحل وتتكلف لصرفه عن معناه الظاهر.

في سورة العصر كفاية

وسطر واحد في القرآن فيه كفاية وغنى لأصحاب المنهج الأول الصحيح، وذلك قوله تعالى:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر].

بل يكفيهم ربعها الذي وصف المتواصي بالحق بالربح.

ولذلك وصف رسول الله ﷺ سورة العصر بأنها تعدل ثلث القرآن [1].

فكلمتان فحسب، لأنها بينتا وجوب الدعوة، كانتا ربع ثلث القرآن.

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٣٣.

فكل واحد في خسر، (إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالعمل بطاعته، فهذا كماله في نفسه، ثم كمل غيره بوصيته له النافع، والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي /: لو فكر الناس في سورة العصر لكفتهم) [1].

فالله سبحانه (لم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضا ويرشده إليه، ويحثه عليه، فإذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين) [2].

أو بأحرف أخرى يقولها الداعية الأستاذ محمد محمود الصواف أن:

(شرط النجاة من الخسران جعله الله -تبارك وتعالى- معلقا بمعرفة الناس للحق، وإذا عرفوه ألزموا أنفسهم به، ومكنوه من قلوبهم، وعاشوا بالحق، وللحق ، ولا يعفون من المسئولية ولا ينجون بأنفسهم إذا عرفوا الحق، ولم يبشروا به ويدعو الناس إليه ويحملوهم حملا على التمسك بالحق واتباع الحق.

فالدعوة إلى الحق والتبشير به فرع الإيمان بالحق ومعرفة الحق، ولا يتم الأصل بدون هذا الفرع، الذي هو الدعوة إلى الحق والتبشير به بين الناس، ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح، بعد أن يعرفه ويتبعه، فهو من الخاسرين، لأن أمر الله -تبارك وتعالى- صريح في هذه الآية، وهو التواصي بالحق، والتواصي يحمل معنى الدعوة إلى الحق بكل صراحة وقوة، فإذا عرفت الحق، ورأيت أهل الباطل يزيغون عن الحق، ولم تدعهم إلى اتباع الحق، وتوصهم باتباع طريق الحق الذي هو الصراط المستقيم، والنور المبين، فلا شك أنك من الخاسرين، لأنك لم تنفذ أمر الله، وتتواص بالحق ولأنك

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١/ ٣٣.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم / ٧٣.

أخذت الحق لنفسك ولم تحمل عليه غيرك من الزائغين المنحرفين أو المخطئين التائهين، والمسلم لا يعيش لنفسه فقط، بل يعيش لنفسه وللناس، فإذا أصلح نفسه وجب عليه إصلاح غيره، والدعوة إلى الإصلاح تشمل الناس جميعا، كل على حسب طاقته، وبقدر نطاقه الذي يحيط به، والنص في هذه الآية صريح، لا يقبل التأويل) [1].

الداعية مجاهد مهاجر

وبمقابل ذلك، منح الله -تعالى- المتواصين بالحق، من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، الذين يقذفون بحجج الله وبيناته على آراء العقول الزائغة، أجر وثواب المجاهدين والمهاجرين، فعد الأمر والنهي جهادًا، والثبات على الدعوة هجرة.

وقال ابن القيم: (ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٢] أي بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة) [2].

جاهدهم بالقرآن يا أيها النبي، ﷺ.

وجاهدوهم بالقرآن، يا ورثة وأتباع هذا النبي ﷺ.

أي أن نقف لآراء عقولهم القاصرة بالمرصاد ندمغها بحجج من هذا القرآن، فإذا باطلهم هو زاهق.

فالدعوة والأمر والنهي والتواصي نوع من الجهاد، ولذلك ساغ لنا في فقه الدعوة أن نتعرف على كثير من جوانب وصفات الدعوة والداعية

---

(١) عدة المسلمين في معاني الفاتحة وقصار السور / ٨٧.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٥٨.

قياسا على أحكام جهاد القتال، بل لذلك أيضًا وجب على الداعية أن يفهم آيات الجهاد وأحاديثها على أنها خطاب له هو أيضًا وهو في أمره ونهيه إن حجبه عن خوض القتال تقدير خسران المعركة وظهور المجازفة ووجود المثبطين والخونة الذين يضربون من الخلف، ولذلك أيضا يحق للآمر الناهي أن يمني نفسه بثواب المقاتلين إن شاء الله.

ثم الداعية بعد ذلك له أجر المهاجرين، كما قرر الإمام ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ﴾ [الأنفال:٧٥]، فقال:

(قالت طائفة من السلف: هذا يدخل فيه من آمن وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة، وهكذا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل]، يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه أو أوقعه في معصية، ثم هجر السيئات وجاهد نفسه وغيرها من العدو، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، وصبر على ما أصابه من قول أو فعل، والله - أعلم) [1].

إلحاح الكيلاني في بيان وجوب الدعوة

وكما اخترنا الإلحاح في بيان وجوب الدعوة إلى الله، واعتبرناه المنطلق، اختار الشيخ عبد القادر الكيلاني / الإلحاح في بيان هذا الواجب، وعاد يذكر أهل بغداد كل أسبوع في خطبته، أو بالأحرى عاد يذكر خيار أبناء الأمة الذين تجمعوا من أطراف الأرض في عاصمة الإسلام.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٢٨٤.

نتدرج معه في أيامه.

يصف الدعاة أولا، فيقول:

(هم قيام في مقام الدعوة، يدعون الخلق إلى معرفة الحق لأ ، لا يزالون يدعون القلوب) [1].

ويجعل إتاحة الله –سبحانه– لعبده هذا المقام الشريف أكبر نعمة، ويعد انشغاله به دليلا على صحة تبعيته وخلافته للرسول ﷺ ، فيقول:

(من صحت تبعيته للرسول ﷺ ألبسه درعه وخوذته، وقلده سيفه، ونحله من أدبه وشمائله وأخلاقه، وخلع عليه من خلعه، واشتد فرحة به: كيف هو من أمته؟

ويشكر ربه لأ على ذلك، ثم يجعله نائبا له في أمته، ودليلا وداعيا لهم إلى باب الحق لأ .

كان هو الداعي والدليل، ولما قبضه الحق لأ أقام له من أمته من يخلفه فيهم، وهم آحاد أفراد، من كل ألف ألف واحدا، يدلون الخلق، ويصبرون على أذاهم، مع دوام النصح لهم. يتبسمون في وجوه المنافقين والفساق ويحتالون عليهم بكل حيلة حتى يخلصوهم مما فيه، ويحملوهم إلى باب ربهم لأ) [2].

ثم يدعوهم إلى إماتة الهوى والنفس الأمارة بالسوء، لتحصل حياة الدعوة.

---

(١) الفتح الرباني للشيخ عبد القادر/ ٧.

(٢) الفتح الرباني / ٨٣.

(موت ثم نشر، ثم إذا شاء أنشرك له، ردك إلى الخلق لتنظر في مصالحهم وتردك إلى بابه، يجيء لك الميل إلى الدنيا والآخرة لتتناول أقسامك منهما، تجيء لك القوة على مقاساة الخلق، فتردهم عن ضلالهم) [1] .

ثم يوجز صفات الداعية وشروط التوثيق في صفة واحدة جامعة لصفة التجرد الكامل والانغماس بكله في الدعوة، حتى ينسى نفسه ويعود لا يرى إلا من يدعوهم، ولا يتكلم إلا بما يفيد من يدعوهم. فعالمه، وكونه الفسيح لا يحوي تجارة ولا شهوة ولا منصبا، ليس في هذا الكون إلا الذين يباشر دعوتهم، هم تجارته، ولذته، ومنصبه.

(يصير كأنه لا نفس له ولا طبع ولا هوى، ينسى طعامه وشرابه ولباسه، يصير ناسيا لنفسه، ذاكرا لخلق ربه لأ ، يخرج بقلبه عن نفسه والخلق، ويبقى بربه لأ ، كل طلبه نفع الخلق، قد سلم نفسه إلى يد قضاء ربه عز وجل) [2] .

فهذا نموذج الدعاة.

هذه صفة من يريد أن يكون ضمن القاعدة الصلبة التي يبني عليها الإسلام الآن.

ووالله لا نجاح للدعوة، ولا وصول، إن أعطيناها فضول الأوقات، ولم ننس أنفسنا وطعامنا.

إن جاهلية القرن العشرين زادت ظلام القرون الأخيرة ظلامًا، فلا ترض العيش في الظلام، بل:

كن مشعلا في جنح ليل حالك يهدي الأنام إلى الهدى ويبين

---

(١) الفتح الرباني/ ١٠٧.

(٢) الفتح الرباني/ ٢١١.

وأنشط لدينك لا تكن متكاسلا واعمل على تحريك ما هو ساكن

وابدأ بأهلك إن دعوت فإنهم أولى الورى بالنصح منك وأقمن

والله يأمر بالعشيرة أولا والأمر من بعد العشيرة هين [1]

* * *

(١) لوليد الأعظمي في ديوان الزوابع/ ١٢٤.